

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [6: الممتحنة]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الانتقال من
حُكْمِ الْوَلَاءِ إِلَى
وُجُوبِ التَّائِسِي
بِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ

لَمَّا بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ حُكْمَ مَوَالَاةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّهْيِ الْمُبَاشَرِ، ثُمَّ بَيَّنَّتْ أَنَّ الْوَلَاءَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهِ، وَنَبَّهَتْ عَلَى خَطَرِ مَوَالَاةِ الْأَرْحَامِ دُونَ مَوَالَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْتَقَلَتْ بِالْبَيَانِ إِلَى ذِكْرِ الْأُسْوَةِ بِإِبْرَاهِيمَ   وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ وَضَعُوا قَوَاعِدَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ، فَكَانَ السِّيَاقُ جَامِعًا بَيْنَ الْجَانِبِ النَّظَرِيِّ وَالْجَانِبِ التَّطْبِيقِيِّ نَاسِبَ الْإِنْتِقَالِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَخَاطَبَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَكُونُوا عَلَى الْجَادَّةِ فِي التَّائِسِيِّ بِاتِّبَاعِ إِبْرَاهِيمَ  ، لِيُؤَالُوا سَيِّدَ الْخَلْقِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّائِسِيَّ بِهِمْ هُوَ لَوْ أَنَّ الْوَلَاءَ الشَّرْعِيَّ، وَتَرَكَ التَّائِسِيَّ بِهِمْ مُخَالَفَةً لِلْمِلَّةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ وَمُضَادَّةً عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يَرْجُوا﴾: (رَجَى) أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الْأَمَلِ وَالْآخَرُ عَلَى نَاحِيَةِ الشَّيْءِ. فَالْأَوَّلُ الرَّجَاءُ، وَهُوَ الْأَمَلُ، يُقَالُ: رَجَوْتُ الْأَمْرَ أَرْجُوهُ رَجَاءً، وَيُسْعُ فِي ذَلِكَ، فَرُبَّمَا عُبِّرَ عَنِ الْخَوْفِ بِالرَّجَاءِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13]؛ أَي: لَا تَخَافُونَ لَهُ عِظَمَةً. وَأَمَّا الْآخَرُ فَهُوَ مِنَ الرَّجَا، مَقْصُورٌ، وَهُوَ النَّاحِيَةُ، وَرَجَا الْبُتْرُ: نَوَاحِيهِ، فَكُلُّ نَاحِيَةٍ فِيهِ رَجَا، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهِنَّ﴾ [الحاقة: 17] (1). فَالرَّجَاءُ ظَنٌّ يَقْتَضِي حَصُولَ مَا فِيهِ مَسْرَّةٌ، وَمَعْنَى ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾: يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ أَوْ يَرْجُو لِقَاءَهُ (2).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 320 / 23.

(2) ﴿يَتَوَلَّى﴾: أصل الكلمة مِنَ التَّوَلَّى وهو المطرُ يَجِيءُ بعدَ الوَسْمِيِّ، سَمِّيَ بذلكَ لِأَنَّهُ يَلِي الوَسْمِيَّ. ويدورُ معنى الكلمةِ على لزومِ الشَّيْءِ ومتابعتِهِ، ويدلُّ التَّوَلَّى لزومًا على القربِ والتَّوَجُّه إلى الشَّيْءِ بالالتفاتِ والانصرافِ إليه. وتُعَيَّنُ جهةُ الانصرافِ بالحرف. فإذا عُدِّيَ بالحرف (إلى) أفادَ الإقبالَ المُقتَضِيَّ للقربِ، وإذا عُدِّيَ بالحرف (عن) لفظًا أو تقديرًا أفادَ الإعراضَ المُقتَضِيَّ للبعدِ؛ لأنَّ (عن) تفيدُ المُجاوِزة، فيكون (تَوَلَّى عن) بمعنى جاوزَ القربَ وابتعدَ. فإذا قيل: (تَوَلَّى عن فلان) فالمعنى: انصرفَ عنه مُعرِضًا. وقد يكون التَّوَلَّى عن الشَّيْءِ بإدبارِ حَسِّيٍّ بالجسمِ أو معنويٍّ بتركِ الإصغاءِ والانتِمار⁽¹⁾، ومعنى ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّى﴾: وَمَنْ يُعْرِضُ عن الإيمانِ والطَّاعةِ⁽²⁾.

❖ الْمَغْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

تُبَيِّنُ الآيَةُ حُكْمَ النَّاسِي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي بَرَاءَتِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ لِمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَثَوَابَهُ، وَالنَّجَاةَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مُعَادَاةِ مَنْ عَادُوا رَبَّهُمْ، وَتَقَرَّبَ إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَأَلْقَى إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنِ إِيْمَانِهِ بِهِ وَطَاعَتِهِ إِيَّاهُ، وَعَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَهُوَ الْحَمِيدُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَيَادِيهِ وَآلَايِهِ عِنْدَهُمْ⁽³⁾.

النَّاسِي بِأَتْبَاعِ
إِبْرَاهِيمَ مُتَابِعَةً
لِمَنْهَجِ السَّوْلَاءِ
وَمَسْلَكِ الْبَرَاءِ

❖ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة اللَّامِ على الْقَسَمِ الْمُقَدَّرِ:

اللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قَسَمِ مُقَدَّرٍ؛ فَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمِ مُقَدَّرٍ؛ وَالتَّقْدِيرُ: وَاللَّهُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةً، وَنَكَتُهُ ذَلِكَ تَبْيِيهُ أَمَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى وَجوبِ

توكيدُ الاقتداءِ
بأصحابِ المنهجِ
الحقِّ مَرهُونٌ
بتصريحِ القرآنِ
بذلك

(1) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).

(2) البغوي، معالم التنزيل: 71/5.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 320/23.

التَّاسِي بِالْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ، وَتَقْرِيرُ الْأَمْرِ فِي نَفْسِهِمْ. وَجِيءَ بِاللَّامِ لِمَزِيدِ الْحَثِّ عَلَى التَّاسِي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ، كَمَا أَنَّ فِي تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِاللَّامِ تَأْكِيدًا لَكُونَ الْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ فِيهِمْ.

دلالة استعمال (قد) على التحقيق:

تحقيق المعاني
لتثبيت القلوب
وطمأنية النفوس

أَفَادَتِ الْأَدَاةُ (قَدْ) التَّحْقِيقَ بِدخولها على الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾؛ زِيَادَةً فِي تَأْكِيدِ الْحَثِّ عَلَى الْإِتِّسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ وَعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ فِي إِعْلَانِ بَرَاءَتِهِمْ مَعَ قَتْلِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، فَالتَّحْقِيقُ الْمُقْتَرَنُ بِالتَّوَكُّيدِ جَامِعٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْمُرَادِ تَثْبِيتهُ وَالْإِطْمَئْنَانِ لِسَلَامَةِ مَسْلَكِهِ، فَلَا يَتْرُكُ لِلْعَقْلِ مَجَالًا لِلشَّكِّ، وَلَا لِلْقَلْبِ مَسْلَكًا لِلخَيْرَةِ.

دلالة ذكر الفعل (كان):

أرفع مقامات
التَّاسِي أَنْ يَكُونَ
لِلْمُؤْمِنِ فِي تَأْسِيهِ
كَأَنَّهُ قَدْ فُطِرَ
عليه

آثَرَ النِّظْمِ الْكَرِيمِ اسْتِعْمَالَ الْفِعْلِ ﴿كَانَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّاسِي بِهِمْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَاسِخًا مُتَأَصِّلًا عَرِيقًا فِيهِمْ، بَحِيثٌ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ كَأَنَّهُ قَدْ جُبِلَ عَلَى التَّاسِي بِهِمْ؛ فَلَا يَجِدُ كُفَّةً فِيهِ، وَهَذَا مِنْ مَحَاسِنِ الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ؛ بَأَنَّ يُنَزَّلَ الْمُخَاطَبِينَ مِنْزِلَةً مَنْ اسْتَقَرَّ التَّاسِي فِي قَلْبِهِ؛ لِمَزِيدِ الْحَثِّ عَلَى الطَّاعَةِ.

دلالة عدم اتصال الفعل (كان) بعلامة التَّانِيثِ مع تَأْنِيثِ مَعْمُولِهِ:

الإيماء إلى قوَّة
التَّاسِي فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ

جَاءَ الْفِعْلُ ﴿كَانَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾ مُذَكَّرًا، وَلَمْ تَتَّصِلْ تَاءُ التَّانِيثِ بِهِ مَعَ أَنَّ اسْمَهُ مُؤَنَّثٌ مُجَازِيٌّ؛ لَوْجُودِ أَكْثَرِ مِنْ فَاصِلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اسْمِهِ، وَلِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ التَّاسِي فِيهِمْ بِجَمِيعِ أَوْصَافِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ مَا فِيهِ؛ فَإِنَّ فِي تَذْكِيرِ الْفِعْلِ إِشْعَارًا بِقُوَّةِ مَدْخُولِهِ.

نكتة تقديم معمول اسم (كان) وخبرها على اسمها:

قُدِّمَ مَعْمُولُ اسْمِ كَانِ ﴿لَكُمْ﴾ كَمَا قُدِّمَ خَبَرُهَا ﴿فِيهِمْ﴾ عَلَى

الْجَنَابَةُ
بِالْمُخَاطَبِينَ
إِلَى
أَهْمِيَّةِ الْعِنَايَةِ
بِمُضْمُونِ
الْخِطَابِ

اسم كان ﴿أُسْوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾، وأصل الكلام: كان أسوة حسنة لكم فيهم، وإنما قُدِّمَ ﴿لَكُمْ﴾ بياناً لموضع الاهتمام وتشريعاً للمؤمنين المخاطبين بهذا التأسّي؛ ليُفيد التقديم إظهار المنّة على المخاطبين، كأنّه قيل: (إنّه تعالى أكرمكم بهذا التأسّي فجعله لكم وشرفكم به). كما أنّ في تقديم خبر كان على اسمها عناية بأحوال المؤتسّي بهم.

دلالة إيثار الخطاب على الغيبة:

الخطابُ في ﴿لَكُمْ﴾ لجميع المؤمنين، وليس لمخاطبين مُعيّنين؛ فيكون على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأنّ أصل الخطاب بضمير الكاف ونحوه أن يكون مُعيّن، أو أن يأتي غيبةً، كأن يُقال: (لقد كان للمؤمنين فيهم أسوة حسنة)، فهو عدولٌ عن الغيبة إلى الخطاب، وفائدته: بيان أنّ الحثّ لكلّ مخاطبٍ، وأنّ التأسّي بهم مطلوبٌ ومقدورٌ عليه لكلّ من يصله الخطابُ، فلا يُفرّق بين مخاطبٍ وآخر، كما أنّ في الخطاب من قوّة الحثّ ما ليس في الغائب، فمُخاطبة كلّ مؤمنٍ إلى يوم الدين بهذا الخطاب ليس كأمره بطريق الغيبة.

نكتة استعمال حرف الظرفيّة الدّاخل على الضمير:

الضميرُ في قوله تعالى: ﴿فِيهِمْ﴾ عائِدٌ على ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وقد دلّ دخول حرف الظرفيّة على الضمير على أنّ الائتساء بإبراهيم عليه السلام ومن معه يحتاجُ إلى تأمّلٍ وتدبُّرٍ؛ إذ جعلوا ظرفاً فيه خيرٌ عميمٌ، فالائتساء بهم يحتاجُ إلى تأمّلٍ أحوالهم، وتدبُّرٍ سلوكياتهم، فمنّ أَرادَه وطلبه فعليه أن يَدْخُلَ في واقعهم، ويطلّع عليه حقّ الاطلاع، ولهذا جَمَعَ هذا التعبيرُ الدّعوة إلى أمرين: الائتساء بهم، وتأمّل واقعهم، ولو قال: (اتّسوا بهم) لما أفاد هذا المعنى، ونكتة ذلك أنّ الائتساء يجب أن يُحيط به العلم والحكمة،

قُوَّةُ الْحَثِّ
عَلَى التَّأْسِي
بِالْأَنْبِيَاءِ تَكُونُ
بِالْخِطَابِ؛
لِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ
الْحَاضِرِينَ

الائْتِسَاءُ سُلُوكٌ
رَاقٍ؛ لِارْتِبَاطِهِ
بِتَفَكُّيرٍ وَتَأَمُّلٍ

وكلُّ اتِّسَاءٍ خلا منهما فسلبِيَّاتُهُ أَكْثَرُ مِنْ إيجابِيَّاته، بل قد يتحوَّلُ إلى شرٍّ محضٍ.

فائدة تكرار ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

تكرَّرَ التَّركِيبُ التَّقْيِيدِيُّ (الموصوفُ وصفته) ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والتَّكرِيرُ لفظيٌّ؛ لأنَّ الأسوَّةَ الحسنة في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ يُقصدُ بها أسوَّةٌ مخصوصة في قول إبراهيم والَّذين معه لقومهم؛ لمُناسبتِها لقِصَّةِ حاطب ابن أبي بلتعة، والأسوَّةُ الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يُقصدُ بها عموم الأسوَّةِ فيهم لا في القول بالبراءة من أعداء الله فقط. ففي تكرار الأسوَّةِ وإطلاقها عمَّا قُدِّمَتْ به الأسوَّةُ الأولى بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص؛ ليكون التَّعميمُ صالحاً لجميع ما يجبُ أن يُؤتَسَى به، ويشهدُ له قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾⁽¹⁾، فدلَّ التَّكرارُ على العموم؛ لدفع توهم إرادة الخصوص؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ مَنْ لم يتأسَّ بهم في أحوالهم وشؤونهم كلَّها فإنَّه يكون مِنَ المُعرِّضين. وفي التَّعميمِ تقريرٌ لكونهم أُسوَّةً حسنةً للمؤمنين يُقْتَدَى بها، كما أنَّ في التَّعميمِ تنبيهًا للمؤمنين إلى أنَّه لا ينبغي الاقتداءُ إلاَّ بمن كان فيه أُسوَّةٌ حسنة، فحصلَ من تكرير الأسوَّةِ الحسنة التَّأكيدُ والتَّقرير مع الشُّمول والعموم.

وذهب الإسكافي وغيره إلى أنَّ الأسوَّةَ الأولى للتَّبَرِّي من الآلهة وعبادتها وإثبات توحيد الله تعالى، فهذه الأسوَّةُ يُقصدُ بها فَصْلُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ لِيَتَمَيَّزَ عَنْهُ فِي الظَّاهِرِ وَيُظْهَرَ عِدَاوَتَهُ لَهُ،

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 362 / 15.

الأسوَّةُ الأولى
تأسَّي بخصوص
البراءة من
المشركين،
والثَّانية في
عموم الاتِّسَاءِ

والأسوة الثانية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يُقصدُ بها الحثُّ على التَّأْسِي بهم؛ لتألوا مثل ثوابهم وتقلبوا في الآخرة مبشرين بالجنة غير خائفين. فالأسوة الأولى يحصلُ بها أصلُ الإيمان الذي هو ركنُ التَّعَبُّدِ، والأسوة الثانية بها يحصلُ ثوابُ الأسوة الأولى في اليوم الآخر، فالتكرير ليس للتأكيد، والمراد بالأسوة الثانية غيرُ المراد بالأسوة الأولى⁽¹⁾.

غرض تنكير لفظ ﴿أُسْوَةٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أُسْوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لتعظيم الأسوة وتفخيمها، فهي أسوةٌ يُستَحَقُّ الاقتداءُ بها لعظميتها وفخامتها، كما أنَّها ليست كسائر الأسى في الانتفاعِ منها.

علة وصفِ الأسوة بالحسنة:

وصفُ الأسوة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ إشعارٌ بمدح هذه الأسوة وتزيينها في قلوب السَّامِعِينَ؛ لأنَّ كونها حسنة قد عَلِمَ مِنَ السِّيَاقِ، فوصفُها بالحسنة مع العلم بأنها حسنة تأكيدٌ لتلك الصِّفة، وبيانٌ لكونها أسوةً حسنةً مَرْضِيَّةً مِنَ اللَّهِ تعالى، فهي أسوةٌ صفتُها الحسنُ، ونعتُها الخيرُ، كما أنَّ في نعتها بالحسنة ترغيباً في امتثال المؤتسَى بهم، ووعداً بالجنة؛ فَإِنَّ شَأْنَ مَنْ يَعْمَلُ الحسنةَ أَنْ يُوْعَدَ بِالْحُسْنَى.

فائدة توالي المؤكِّدات:

تَوَالَتْ المؤكِّداتُ في جملة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بلام القسم (قد) واسميَّة الجملة قبل دخول ﴿كَانَ﴾ عليها؛ ليكون التأكيد في غايته، وذلك لتقرير حثِّ المؤمنين على الاتِّسَاءِ بإبراهيم وقومه والتأكيد عليهم؛ إذ كان من إبراهيم فعلٌ حسنٌ - وهو تبرُّؤُه

التَّأْسِي
بِالصَّالِحِينَ أَمْرٌ
عَظِيمٌ

مَنْ أَتَى الْحَسَنَةَ
وَعَدَ بِالْحُسْنَى

تَنْزِيلُ تَارِكِ
الْبَرَاءَةِ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ مَنْزِلَةٌ
الْمُنْكَرِ لِحُكْمِ
الْأُسْوَةِ

(1) الإسكافي، دُرَّةُ التَّنْزِيلِ: 1/ 1267، والطبي، حاشية على الكشاف: 15/ 361، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 54 - 55.

من الكافرين - وقول حسن، وهو دعاء ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا﴾، ولذلك جيء بالتأكيد مُصدراً بالقسم الذي هو الغاية في التأكيد، كما أنَّ توالي ثلاثة مُؤكِّدات مُشعرٌ بالإنكار على مَنْ لا يتأسى بهم في البراءة من عدو الله، ويركُن إلى التَّقَرُّبِ إليهم بالموَدَّةِ وإلى موالاتهم، وعلى مَنْ لا يَفُوضُ أمره إلى الله ولا يُنِيبُ إليه، وشِدَّةُ الإنكار تُناسِبُ سياق البراءة من المشركين، فنُزِّلَ مَنْ لم يتأسَّ بِاتِّباعِ إبراهيم ﷺ منزلة مَنْ يُنكِرُ ذلك التَّأْسِيَّ، حثاً للمؤمنين ودفعاً للتَّبَاطُؤِ في ذلك.

دلالة الجملة الخبرية على الطلب:

الجملة الخبرية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يُرادُّ بها الطلب؛ بمعنى: أنَّها على معنى الأمرِ بالتَّأْسِيِ بهم، فليس المقصودُ مجردُ الخبر، والمعنى: تأسَّوا - أيُّها المؤمنون - بإبراهيم والَّذين معه⁽¹⁾، فيكونُ الخبرُ على خلافِ مُقتضى الظَّاهر؛ لدلالته على الطلب بصيغة الخبر.

ونكتة مجيء الأمر بصيغة الخبر الإشعارُ بأنَّ شأنَ التَّأْسِيِ بهم من شِدَّةٍ ووضوحه وظهوره لا يحتاجُ إلى صَوْغِهِ بصيغة الأمر، بل يكفي المؤمنون مجردُ الإخبارِ عنه للتَّشْمِيرِ للاقتداءِ بهم.

توجيه التشابه اللفظي:

دلَّ ذكرُ الأسوةِ الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ على أنَّ المؤمنين مُطالِبُونَ بالتَّأْسِيِ برسولِ الله ﷺ، ومُطالِبُونَ كذلك بالتَّأْسِيِ بِمَنْ أُمِرَ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بهم من المرسلين،

الإقْبَادُ
بِالصَّالِحِينَ أَمْرٌ
ثَابِتٌ، فَلَا يَحْتَاجُ
إِلَى الطَّلَبِ
الصَّرِيحِ

التَّأْسِيِ بِالْمُرْسَلِينَ
وَأَتْبَاعِهِمْ تَأْسٍ
بِالنَّبِيِّ بِطَرِيقِ
الزُّرْمِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 901/14.

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَفْتَدِ﴾ [الأنعام: 90]، فالرَّسُولُ والمُؤْمِنُونَ مأمُورُونَ بالتَّأْسِي والِاقتِدَاءِ بِالْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ، ولَمَّا كَانَ اقْتِدَاءُ النَّبِيِّ بِهِمْ كَانَ اقْتِدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ اقْتِدَاءً بِهِ بِاللَّازِمِ، وهو ما يدلُّ على وَحْدَةِ الرِّسَالَةِ وَأَصُولِ التَّشْرِيعِ، لَا سِيَّما مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ والدَّعْوَةِ.

فائدة تكرير حرف اللّام:

كُرِّرَ حرفُ اللَّامِ في ﴿لَنْ﴾؛ لِيَكُونَ تَأْكِيدًا لِلَّامِ الَّتِي فِي ﴿لَكُمْ﴾؛ بِمَعْنَى: أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ يَسْتَلْزِمُ التَّأْسِيَّ بِهِمْ، وَلِيَتَحَقَّقَ الْبَدَلُ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْكَلَامِ؛ لِيُفِيدَ أَنَّ التَّأْسِيَّ بِهِمْ لِأَجْلِ الرَّجَاءِ الْمَذْكُورِ.

غَايَةُ التَّأْسِي رِضَا
اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بلادة البَدَلِ في تَقْيِيدِ وَبَيَانِ الْمُبْدَلِ مِنْهُ:

جاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ مَنْ قَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ﴾⁽¹⁾، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ بَدَلِ الْبَعْضِ تَخْصِيصٌ بَعْدَ التَّعْمِيمِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْأَسْوَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَهَذِهِ الْأَسْوَةُ حَسَنَةٌ لَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرْجُو اللَّهَ⁽²⁾؛ بِمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ الْأَسْوَةَ لَمَنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، فَفِي مَجِيءِ بَدَلِ الْبَعْضِ حَتْ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ شَأْنٌ يَشْغُلُهُ عَنْ أَنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَأَبْدَلَ الْغَائِبُ مِنَ الْمُخَاطَبِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّعْمِيمِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخُطَابَ لَيْسَ لِقَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ، فَلَمَّا كَانُوا كَذَلِكَ نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ الْغَيْبِ⁽³⁾.

لَا يَقْتَدِي
بِالْمَقْبُولِينَ
الْمُؤَفَّقِينَ إِلَّا كُلُّ
رَاجٍ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْبَدَلُ مِنْ قَبِيلِ كُلِّ مَنْ كُلٌّ⁽⁴⁾؛ لِيُفِيدَ أَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَتْرُكُ الْاِقْتِدَاءَ بِالْمَذْكُورِينَ، وَأَنَّ تَرْكَهُ مِنْ

(1) أبو حيان، البحر للحيط: 156/10، والسمين الحلبي، الدر المنصون: 306/10.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 387/14.

(3) الهمذاني، الكتاب الفريد: 249/5.

(4) القنوني، حاشية على تفسير البيضاوي: 55/19، والالوسي، روح المعاني: 165/11.

مَخَايِلِ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِمَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ لَمْ يَأْتِسْ بِهِمْ فَلَا يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، فَلَيْسَ ذِكْرُ ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تَخْصِيصًا لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخَاطَبِينَ؛ لِأَنَّ الْبَدَلَ مِنْ قَبِيلِ بَدَلِ كُلِّ مَنْ كُلٌّ، فَيَكُونُ سَبَبُ مَجِيءِ الْبَدَلِ تَذْكِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَقْتَضِي تَأْسِيَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ وَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَالَّذِينَ مَعَهُ⁽¹⁾، فَفِي مَجِيءِ الْبَدَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتْرَكَ التَّأْسِيَ بِهِمْ، وَأَنْ تَرَكَهُ مُؤْذِنٌ بِسُوءِ الْعَقِيدَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ مُنْبِئٌ عَدَمُ رَجَائِهِ بِالْوَعِيدِ، وَلِذَلِكَ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وَمِثْلُ هَذَا الْوَعِيدِ جَدِيرٌ بِأَنْ يُوعَدَ بِهِ الْكَفَرَةُ تَهْدِيدًا لَهُمْ⁽²⁾، فَالْقَصْدُ مِنَ الْبَدَلِ هُوَ زِيَادَةُ الْحَثِّ عَلَى الْإِتِّسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ، وَلِيَكُونَ تَمْهِيدًا لِمَا بَعْدَهُ؛ بِمَعْنَى أَنْ يُرْتَبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾⁽³⁾، فَتَكُونُ كُلُّ لَفْظَةٍ لَهَا مَقَامُهَا الَّذِي تَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَالَّذِي تُمَهِّدُ فِيهِ لِمَا بَعْدَهَا.

دلالة التعبير بالاسم الموصول:

جاءَ التَّعْبِيرُ بِالْإِسْمِ الْمَوْصُولِ (مَنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ؛ لِلإِذَانِ بِأَنَّ التَّأْسِيَ بِهِمْ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ.

وأفادت صلة الموصول في قوله تعالى: ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بَيَانَ عِلَّةِ الْحَثِّ عَلَى التَّأْسِيَ بِهِمْ وَطَلِبِهِ وَالْحَرَصِ عَلَيْهِ، وَبَيَانَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَأَسَّ بِهِمْ فِي هَذَا لَمْ يَكُنْ رَاجِيًا لِمَا ذَكَرَ⁽⁴⁾؛ بِمَعْنَى: أَنَّ الْإِتِّسَاءَ بِهِمْ سَبَبٌ لِنَيْلِ رَجَاءِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ، فَفِيهِ إِخْبَارٌ بِأَنَّ

الرَّاجِي هُوَ الَّذِي
يَتَأَسَّى وَلَا يَتَمَتَّى
عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28 / 149.

(2) البياضوي، أنوار التنزيل: 5 / 205، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8 / 283.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28 / 149.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19 / 503.

الرَّجَاءُ لَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ وَأَنَّ الرَّاجِيَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الطَّالِبُ بِمَا يَرْجُوهُ، بَأَنَّ يَقُومَ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْجُو الْوَصُولَ بِهَا إِلَى مَا يَرْجُوهُ، وَالْخَائِفُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْحَادِثُ عَمَّا حُذِرَ، وَالْمُنْتَهِي عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ. فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى مَجَرَّدِ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ دُونَ التَّمَسُّكِ بِسَبَبِيهِمَا وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِمَا كَانَ مُتَمَنِّيًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى⁽¹⁾، كَمَا أَنَّ فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ مَدْحًا لِلْمُتَأَسِّي بِأَنَّهُ مَمَّنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ.

بِلَاغَةُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

التَّفَتُّ الْكَلَامُ مِنَ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. فَلَمْ يَقُلْ: (إِنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)، وَفَاءُتُهُ تَعْمِيمُ الْخِطَابِ؛ لِيَكُونَ تَوَاطُؤًا وَتَمْهِيدًا لَجُمْلَةِ التَّنْذِيلِ الَّتِي جَاءَتْ بِصِغَةِ الْغَيْبَةِ؛ لِتَفِيدَ الْعُمُومَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الْإِلْتِفَاتُ إِلَى
الْغَيْبَةِ تَعْمِيمُ
لِلْخِطَابِ
وَتَوَاطُؤُهُ لِمَا بَعْدَهُ

نَكْتَةُ دُخُولِ الْفِعْلِ «كَانَ» عَلَى الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ:

أَثَرُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ ذَكَرَ الْفِعْلَ «كَانَ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾: لِبَيَانِ أَنَّ الرَّجَاءَ الْمَذْكُورَ عَرِيقٌ رَاسِخٌ، وَكَأَنَّهُ قَدْ جُبِلَ عَلَيْهِ، رَغْبَةً فِيهِ وَحَرَصًا عَلَيْهِ، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِصِغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾؛ لِلإِشْعَارِ بِالْحَثِّ عَلَى اسْتِمْرَارِ رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَجَدُّدِهِ حَالًا فَحَالًا وَوَقْتًُا فَوْقَ وَقْتًا، وَاسْتِعْمَالُ «كَانَ» مَعَ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ دَلٌّ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ فِي الْفِعْلِ، بِحَيْثُ يَكُونُ خَبَرُ «كَانَ» دَائِبَةً وَعَادَتَهُ؛ بِمَعْنَى: أَنَّ يَكُونُ دَائِبُ الْمُؤْمِنِ وَعَادَتُهُ رَجَاءُ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

دَائِبُ الْمُؤْمِنِ
وَعَادَتُهُ أَنْ يَكُونَ
رَاجِيًا لِلَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ

بِلَاغَةُ اسْتِعْمَالِ مُفْرَدَةِ «يَرْجُوا» دُونَ الْخَوْفِ:

لَمَّا كَانَ السِّيَاقُ فِي بَيَانِ الْحَثِّ عَلَى التَّأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

(1) اللَّاتِرِيدِي، تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ: 613 / 9.

الزَّيَادَةُ
فِي التَّائِسِي
بِالصَّالِحِينَ
تَوَرُّثُ رَجَاءِ
الْخَيْرِ لَا خَوْفَ
الشَّرِّ

معه، وأنه محبوبٌ عند الله ناسبَ التعبير بالرجاء في قوله تعالى: ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾، الذي هو توقُّع محبوبٍ عن أمارَةٍ مظنونَةٍ أو معلومةٍ دون الخوف؛ ليفيدَ أنَّ مَنْ يتأسَّى بهم يَتَوَقَّعُ خَيْرًا في لقاء الله وثوابه المرجوَّ وعطائه، فالمراد هو الحثُّ على الفعل المقتضي للرجاء؛ فالتأسِّي بهم يرجو الله واليوم الآخر، ولهذا لم يقل: (لمن يخاف الله واليوم الآخر)؛ لأنَّ التعبير بالخوف يقتضي تجنُّبَ الفعل المذكور قبله، فالخوفُ توقُّعُ مكروهٍ عن أمارَةٍ مظنونَةٍ أو معلومةٍ؛ بمعنى: أنَّ فعلًا سابقًا اقتضى توقُّعَ المكروه في المستقبل، فاقترضى السياق اختيارَ مفردة ﴿يَرْجُوا﴾ دونَ (يخاف).

نكتة إطلاق الفعل ﴿يَرْجُوا﴾ عن القيود:

لم يُقَيَّدَ الفعل ﴿يَرْجُوا﴾ بقيدٍ زمنيٍّ أو مكانيٍّ، وذلك للحثِّ على أن يكون هذا هو شأنُ المؤمن وعادته في عموم الأحوال والأزمنة والأمكنة.

بلاغة حذف المضاف:

حُذِفَ المضاف وأُقيمَ المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾؛ فلم يقل: (لمن كان يرجو ثواب الله واليوم الآخر)، أو على تقدير: (أيَّامَ الله)، وذلك لتربية المهابة في قلوب المخاطبين، وليكون الرجاء لذات الله تعالى، وثوابه من آثار رجائه، وهو أدقُّ مَسْلَكًا، وأبلغ طريقًا من ذكر المحذوف.

نوع العطف ودلالته:

الواو في قوله تعالى: ﴿يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ لعطف رجاء اليوم الآخر على رجاء الله، وذلك للإشعار بأنَّ رجاء اليوم الآخر داخلٌ في رجاء الله تعالى، ومقتضى رجاء الله رجاء ثواب اليوم الآخر، فيكون من عطف الخاص على العام؛ لأهميَّة في الخاص، ويَحْتَمَلُ أن يكونَ عطف الخاص على العام بتقدير: (لمن يرجو أيَّامَ الله

ينبغي أن يكونَ
الرجاء مُصَاحِبًا
للمؤمن في كلِّ
أحواله

من رجاء الله
تعالى فقد نالَ
ثوابه

مَرَدُّ أَصُولِ
الإيمان كُلِّهَا إِلَى
الإيمان بالله
وتوحيده

واليوم الآخر⁽¹⁾؛ تنبيهًا على أهميّة ثوابِ التَّاسِّي في اليوم الآخر؛
لمناسبتِه للسياق، فيكون سببُ ذكرِ اليوم الآخر هو ترغيبُ المؤمنين
في البراءة من أعداء الله، وتخويفُ مَنْ يواليهم ولا يتبرأ منهم.

دلالة حذف فعل الرجاء:

لم يُكرَّر الفعلُ «يَرْجُوا»، فلم يُقَل: (ويرجو اليوم الآخر)؛
للإيماء إلى أَنَّ الرجاء المذكورَ واحدٌ لا يتجزأ، وفيه تنبيهٌ على أَنَّ
الإيمانَ واحدٌ لا يتجزأ، وهو ما يُقوِّي عنصرَ الرّقابة.

رجاء الله تعالى
يدخل تحت كل
رجاء

نكتة ذكر (اليوم الآخر) دون مقارباته:

جاءَ ذِكْرُ (اليوم الآخر) دون مقارباته كيوم البعث؛ لأنَّ اليومَ
الآخرَ هو وصفٌ من أوصاف يوم القيامة، يُقصدُ به اليوم الذي
لا يومَ بعده. وهو من الموتِ إلى آخرِ ما يَقَع يومَ القيامة، فيشملُ
أحوالَ القَبْرِ والبرزخ، ونعيمه وعذابه، وأحوالَ يومِ القيامة وما
فيها من الحسابِ والثوابِ والعقابِ والصُّحُفِ والميزانِ والشِّفاعةِ،
وأحوالَ الجنَّةِ والنَّارِ وصفاتِهما وصفاتِ أهلِهما، وما أعدَّ اللهُ لأهلِها
إجمالاً وتفصيلاً. وفي التعبيرِ باليوم الآخر إشارةٌ إلى أَنَّ أيامَ الدنيا
منتهية؛ ففي ذكره تحريضُ العبادِ على العملِ ليومٍ ليس بعده عملٌ؛
إيماءً إلى ضرورة المبادرة وحُسنِ المسارعة لما في رضا ربِّ العبادِ،
أمَّا ذِكْرُ يومِ البعث فهو دالٌّ على التعرّف ببيومِ القيامة وما يكون فيه
من البعث.

الإيماء إلى
ضرورة المسارعة
قبل انتهاء زمن
العمل

نوع الواو ودلالاتها:

تَحْتَمِلُ الواوُ في قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ» أَنْ تكونَ عاطفةً أو أَنْ
تكونَ للاستئناف، وعلى الاستئنافِ فهي مفيدةٌ أَنَّ ما بعدها جملةٌ
تذييليةٌ تفيدُ العمومَ؛ لِكَلْبَتِهَا وعمومِ ألفاظِها؛ لأنَّ التَّوَلَّى يَعْمُ الَّذِينَ

شأن النّظم
أن يدل على
الأغراض العامة
والخاصة

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 531، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 228، وأبو السعود، إرشاد العقل
السليم: 7/ 97.

لا يتأسون بإبراهيم والذين معه وغيرهم ممن يعرض عن أمر الله تعالى وعن طاعته، فأفادت الجملة ذمَّ عموم المعرضين عن امتثال أمر الله تعالى، وذمَّ المعرضين عن التَّأْسِي على الخُصوص.

دلالة اسم الشرط (من):

أفاد اسم الشرط (من) معنى العموم؛ ليفيد دخول كل من يتولَّى عن أمر الله وعن الحق في عموم الشرط.

براعة الاحتمال في استعمال الفعل «يَتَوَلَّى»:

الظاهر أنَّ الفعل المضارع «يَتَوَلَّى» ماضيه (تَوَلَّى)، ويتعدَّى بـ(عن) فيكون بمعنى (يعرض)، وهو الذي ذكره جمهور المفسرين⁽¹⁾، والتقدير: وَمَنْ يُعْرِضُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ؛ لأنَّ السَّيَاقَ في بيان الوعيد عَمَّنْ يُعْرِضُ عن طاعة الله في البراءة من عدوه، وعن طاعته في الاقتداء بإبراهيم والذين معه. فكأنَّه قيل: من يتولَّى عن طاعة الله فيما أمره من معاداة من عادوا ربَّهم فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ⁽²⁾. وجوز ابن عاشور أن يكون الفعل «يَتَوَلَّى» من التَّوَلَّى بمعنى اتَّخَذَ الْوَلِيَّ؛ فيكون بمعنى الإقبال إليهم وموالاتهم؛ أي: ومن يتولَّهم؛ فيكون من قبيل حذف المفعول به. والمعنى: مَنْ يَتَّخِذْ عَدُوَّ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِّ وَلَايَتِهِ، كما في قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّهمْ فَيَنكُهمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»⁽³⁾ [الثَّانِي: 51]، وهو مُحْتَمَلٌ من حيث اللفظ، ومُتَّسِقٌ من حيث السَّيَاق.

نكتة التعبير بمفردة «يَتَوَلَّى» دون (يعرض):

معنى «يَتَوَلَّى»: (يعرض) على ظاهر السَّيَاق، ونكتة التعبير به دون أن يقال: (ومن يعرض)، احتمال معنى الإعراض ومعنى تولَّى الأعداء، ولما كان التَّوَلَّى يُشعر بالقرب من الشيء كان هو الأنسب،

الله تعالى غنيٌّ
عن كلِّ معرضٍ
عنه

احتمال معنى
الإعراض ومعنى
موالاة أعداء الله
تعالى

التَّوَلَّى أشدُّ
من الإعراض؛
لأنَّه بعد إظهار
الولاء

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 320/23، والواحد، التفسير البسيط: 412/21، والبغوي، معالم التنزيل: 71/5، والنسفي، مدارك التنزيل: 469/3.

(2) للتأريدي، تأويلات أهل السنة: 613/9.

فالتَّوَلَّى إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ إِظْهَارِ الْوَلَاءِ، فَيَأْتِي الْمُتَوَلَّى بِضِدِّ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْ ضِدِّ مَا كَانَ يَظْهَرُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْإِعْرَاضُ فَلَيْسَ كَذَلِكَ، فإِعْرَاضُ الْمُعْرِضِ أَعْمُ مِنْ إِعْرَاضِ الْمُتَوَلَّى، فَالْكَافِرُ يُوَصَّفُ بِالْإِعْرَاضِ.

بِلاغَةُ حَذْفِ مَفْعُولٍ «يَتَوَلَّى»:

على الوجه الظاهر بأنَّ «يَتَوَلَّى» بمعنى (يعرض) يَكُونُ التَّوَلَّى متعدياً بـ(عن)، فيكونُ حَذْفُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ لإِفَادَةِ الْعُمُومِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِعْرَاضُ عَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ التَّأْسِي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، وَعَنْ نَهْيِهِ فِي مَوَالَاةِ عَدُوِّهِ دَخُولاً أَوَّلِيًّا. فَالْحَذْفُ مُنَاسِبٌ لِعُمُومِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ. وَعَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَاشُورٍ مِنْ أَنَّ التَّوَلَّى يَكُونُ بِمَعْنَى اتِّخَاذِ الْوَلِيِّ يَكُونُ الْمَحْذُوفُ مَفْعُولَ الْفِعْلِ «يَتَوَلَّى»؛ أَي: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ، وَحُذِفَ الْمَفْعُولُ لإِفَادَةِ عُمُومِ تَوَلَّى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي الْحَذْفِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَحْذُوفَ لَا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ إِعْرَاضاً عَنْهُ.

فَائِدَةُ الْفَاءِ الْوَاقِعَةِ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ:

أَفَادَتِ الْفَاءُ الْوَاقِعَةُ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» مَالَ التَّوَلَّى؛ بِمَعْنَى: أَنَّ مَنْ يَتَوَلَّى عَنِ التَّأْسِي بِاتِّبَاعِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُعْرِضُ عَنْ رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْمَذْكُورَ، كَمَا أَفَادَتِ الْفَاءُ التَّعْقِيبَ؛ بِمَعْنَى عَدَمِ إِمْهَالِهِمْ فِيمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى التَّهْدِيدِ.

بِلاغَةُ ذِكْرِ عِلَّةِ جَزَاءِ الشَّرْطِ بِدَلِّ الْجَزَاءِ:

كَانَ الظَّاهِرُ فِي جَزَاءِ الشَّرْطِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِباً لِلتَّوَلَّى عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَعَنْ عَدَمِ التَّأْسِي، لَكِنَّهُ ذِكْرُ عِلَّةِ الْجَزَاءِ «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»، فَأُقِيمَتِ عِلَّةُ الْجَزَاءِ مُقَامَ الْجَزَاءِ، وَتَقْدِيرُ الْمَعْنَى: وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنِ التَّأْسِي فَضَرَرُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّ أَوْلِيَاءَ

الذَّمُّ يَلْحَقُ كُلَّ
مُعْرِضٍ عَنْ
عُمُومِ الطَّاعَاتِ

مَالُ التَّوَلَّى
تَهْدِيدٌ ضَمْنِيٌّ
وَوَعِيدٌ مُجَمَّلٌ

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ
الْغَنِيُّ، فَلَا
يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ
وَالْأَوْلِيَاءُ، وَلَا تَضُرُّهُ
عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاهُ

اللَّهُ؛ لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ⁽¹⁾؛ إذ لم يدْعُكم إلى ترك موالاة عدوِّه
لحاجة نفسه أو لحاجته إليكم؛ إذ هو الغني بذاته. وفي الجزاء
تهديد وإشعار بأن الأمر بالتأسي بإبراهيم والذين معه في البراءة
من عدوِّ الله لمصلحة المتأسي وفائدته، ولا يفيد الله شيئاً؛ لَأَنَّ الْغَنِيَّ
عن كلِّ شيءٍ⁽²⁾.

كما أن في ذكر الجزاء إشعاراً بأن الجزاء من جنس العمل،
وبيانه: أَنَّ الْمُعْرِضَ قد استغنى عن أمر الله ولم يكثر به، فجاء
الجزاء على وفق عمله، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
الغني عنه، لا يَنْفَعُهُ ولاءٌ مَنْ والاه، ولا تَضُرُّهُ عداوةٌ مَنْ عاداه، وإنَّه
ليس بمحتاج إلى نصرتهم وموالاتهم له سبحانه.

كما أن في الجزاء إشارة إلى أَنَّ الإِعْرَاضَ عن التَّأْسِي بإبراهيم
والَّذِينَ معه في البراءة من عدوِّ الله ومن معبوداتهم هو إِعْرَاضٌ عن
عبادته سبحانه، وأنه تعالى ليس بمحتاجٍ لهم ولعبادتهم.

دلالة إظهار اسم الجلالة دون إضماره:

آثر النظم الكريم إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْغَنِيُّ﴾ دون أن يقول: (ومن يتولَّ فإنه هو الغني الحميد) بإضمار
الاسم الجليل لقرب ذكره، فعدَّل إلى الإظهار؛ لتكون الجملة تذييليةً
مستقلةً بنفسها، فتجري مجرى المثل في عمومها وكليتها.

دلالة ضمير الفصل:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ جاء ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾؛
لتأكيد الحصر المستفاد من تعريف المسند والمسند إليه.

بلاغة أسلوب الحصر بتعريف الجزأين:

لما جاء المسند والمسند إليه معرفتين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ

عُمُومُ الْفَائِدَةِ
أَوَّلَى مِنْ
خُصُوصِ الْبَيَانِ

تَأْكِيدٌ مَعْنَى
الْحَصْرِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 55/ 19.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 190/ 5.

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أفاد تعريف الجزأين الحصر، والحصر هنا ادّعائي لِعَدَمِ الإعتدَادِ بِغِنَى غَيْرِهِ وَلَا بِحَمْدِهِ؛ أي: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ فَلَا غِنَى سِوَاهُ، وهو الحميد فلا حميدَ سِوَاهُ. ولمَّا أفاد الحصر أَنَّهُ تعالى هو وحده الْغَنِيُّ دَلَّ على أَنَّ غَيْرَهُ فقيرٌ إليه؛ لِيُفِيدَ أَنَّهُم هم المحتاجون إلى تَأْسِيسِهِمْ بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ الْغَنَىَّ تعالى هو الَّذِي أَمَرَهُمْ به وحثَّهم عليه.

معنى صفة «الْغَنِيُّ»:

الْغَنِيُّ هو الموصوف بالغنى؛ أي: عدم الاحتياج المطلق لأحد، ولمَّا لم يُذكر له مُتَعَلِّقٌ كان مفيداً الْغِنَى الْعَامَّ الْمَطْلُوقَ الْمُسْتَمَرَّ، وَمَنْ كان كذلك فالخلقُ مَحَاوِجٌ إليه.

بلاغة التَّتْمِيمِ في ذكر الأوصافِ الْحُسْنَى:

جاء ذكرُ صفة **«الْحَمِيدُ»** تَتْمِيمًا لصفة **«الْغَنِيُّ»**؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ جاء على سبيل التَّهْدِيدِ لِلْمُعْرِضِ عن أمرِ اللَّهِ تعالى، فلمَّا ذكر صفة **«الْغَنِيُّ»** الَّذِي هو من مقتضى الجزاء تَمَمَّه بوصف **«الْحَمِيدُ»** على سبيل الإطناب؛ لِيُفِيدَ أَنَّهُ كثيرُ الحمد لِمَنْ يَمْتَثِلُ أَمْرَهُ وَلَا يُعْرِضُ عنه، الْمُقْبِلُ إليه، الْمُتَمَسِّكُ بأوامِرِهِ سُبْحَانَهُ، ويدخل فيه الْمُتَأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ في البراءة من عدوِّ اللَّهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وصف **«الْحَمِيدُ»** بمعنى أَنَّهُ المَحْمُود على أفعاله؛ أي: هو المَحْمُود بِكُلِّ مَا يَفْعَلُهُ بِأَعْدَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ.

كما يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المعنى محمولًا على التَّقْيِيدِ والاحتراس، فليس كُلُّ غَنِيٍّ محمودًا، فالغنيُّ البَخِيلُ غَيْرُ محمودٍ، لكنَّ اللَّهَ ﷻ غَنِيٌّ حَمِيدٌ يُحْمَدُ على غِنَاهُ؛ لِأَنَّهُ ﷻ واسعُ الْعَطَاءِ كثيرُهُ⁽¹⁾، وكلُّ هذه المعاني صحيحةٌ، ولا يمتنع حَمْلُ اللَّفْظِ عليها جميعًا.

الله تعالى هو
الغني فلا غني
سِوَاهُ، وهو
الحميد فلا
حميدَ سِوَاهُ

غنى الله تعالى
مقرون بالحمد،
فغِنَاهُ ليس
كغِنَى المخلوقين
المنتظرين الجزاء
على العطاء

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 417.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447 هـ - 2026 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغنامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61، 814 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61: المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-645-72-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"